الكوفية والعقال

مقال فكر في موضوع قديم جديد

بقلم : الأب أنستاس ماري الكرملي

تعريف الكوفية والعقال

جاء في مجلة الاسلام ما هذا نقلُهُ الى لغتنا في تعريف الكوفية والعقال : « الكوفية (وفي لغة سورية الكفيَّة ، على ما في معجم الأب كَوش اليسوعي ص ٥٧٧ — وبُركهاردت في كتابه تعليقات على البدو ص ٢٧ ، وج . سنكه في كتابه رحلة في الشرق ص ١٨٥) كلمة عربية ، مقتبسة من اللغات اللاتينية الحديثة [1] (فهي في الايطالية Cuffia والاسبانية Cofia ، والبرتوغالية Coifa والفرنسية Coiffe أو Coiffe) شُقَّةٌ من حرير يتخذها بدو صحراء الشام عَمرةً لهم ، أو شكر البدو المتدون الى ارجاء مكة ، وتثبت حول الرأس بحبل أو بريم من الوبر مصبوغ بأسود ، ويوثق من فُسحة الى فسحة بضيَّات زاهية الألوان ويسمى هذا الحبل عُقَّالاً (بالفتح ، وباللغة الفصحى عِقالاً بالكسر) وهذه الشُّقَّة كفةٌ مربعة ، صفراء اللون أو صفراؤه وخضراؤه ، توضع على الرأس ، بحيث تقع زاوية منها الى الوراء ، في حين ان الزاويتين الأخريين تقعان على مقدم الكتفين . وهذا يستلزم أن تطوى الكفة طيتين قبل أن توضع على الرأس ، بحيث يتقوم منها زاوية ، وهذا ما يسمَّى طرقاً حاذقاً في صناعة القصارين ويستطيع لابسها بعد ذلك أن يجمع الطرفين الواقعين على الكتفين على وجهه ليدفع عنهُ أشعة الشمس أو حرّ السموم أو القطر أو يخفي ملامحهُ ، إذا شاء أن يبين نفسهُ . وتتدلَّى خيوط الضحمة كل الشدي حتى تتجاوز طرف الكفة المنسوجة ، وتفتل فتلاً كالزير فتكون لهُ أطراف طويلة . وكانت هذه العمرة معروفة عند السلاطين المماليك في مصر

الكوفية والعقال (وهما :) الصيداد والبيضاية

أ — تصدير

بين الأدباء المعاصرين ، والمؤرخين ، والباحثين ، مطارحات ومطالعات ، وجدالات لا تحصى

---

(١) كذا . وهذا وهم ظاهر كما ستراه في موضعه عند كلامنا على وجود الكوفية عند عرب في قديم الزمن

تتعلق بالكوفية والعقال ، ووجودهما عند العرب في سابق العهد . وقد ذهب بعض هؤلاء الأفاضل الى ان وجودهما لا يتجاوز ثلاثة قرون في أبعد تقدير ، وأني يعتبرهم عدة لمدة طويلة ، فقدرها بمائتي سنة في الأكثر . وجرى حديث طويل بيني وبين احمد زكي باشا رحمه الله ، في حزيران (يونيو) سنة ١٩٣١ م ، فكان يؤكد ان ثلاثمائة سنة هي أبعد مدة يمكن ان تقدر لوجودهما عند الاعراب

ثم استفاض حديث آخر بيني وبين الشيخ احمد الاسكندري رحمه الله ، وطائفة من اصفياء مجمع فؤاد الأول للغة العربية كعلي بك الجارم وأحمد بك العوامري وغيرهما — وملخص كلامهم لا يخرج عن هذه الفكرة . ومن العبث ذكر تفاصيل هذا الحديث الذي جرى في سنة ١٩٣٧

وأما رأيي فقد كان دائماً مخالفاً لآراء هؤلاء المحققين والادباء المؤرخين ، اذ كنت اقول بأن الكوفية والعقال ، هما من ملابس الرأس عند العرب ، وكانا معروفين عندهم منذ أقدم الأزمنة ، أي قبل الاسلام وبعده ، الى عهدنا هذا . وليس الاسم هو المهم في هذا الموضوع ، انما المهم الشيء نفسه ووجوده بين جمهور الناس ، اذ الاسماء تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والقبائل ، كما هو الأمر في اسامي اشياء كثيرة كالأسد ، والجمل ، والناقة ، والحنطة ، والسيف ، الى ما لا يعد ولا يحد من الأعيان والجواهر . ومثل هذا الأمر يجري في جميع لغات الدنيا

٢ — تعريف الكوفية والعقال

(الكوفية قبل الاسلام)

«كان العقال معروفاً في فلسطين بنحو ثمانمائة سنة قبل المسيح» — شهادة التوراة —

لا شبهة في ان العقال كان معروفاً في فلسطين قبل المسيح بنحو ثمانمائة سنة . والشاهد على ذلك ما ورد في سفر الملوك الثالث في الفصل ٢٠ والآية ٣٢ وهذا نص القصة التي تروي سبب وضع العُقُل على الرؤوس كما جاء في نسخة التوراة المطبوعة في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية :

« فحارب الارامیون ، واتبعهم اسرائيل ، فافلت بنهدد ، ملك أرام ، على فرس مع الفرسان . وخرج ملك اسرائيل ، فضرب الخيل والمراكب ، وضرب أرام ضربة عظيمة . فتقدم النبي الى ملك اسرائيل ، وقال له : امض ، وتشدد ، وتأمل ، وانظر ما تصنع ، فانه عند مدور السنة ، يصعد عليك ملك أرام . وقال ملك أرام عبيده : ان آلهتهم ، آلهة الجبال ، ولذلك قووا علينا ، ولكن اذا حاربناهم في السهل ، فانا نقوى عليهم وانت فافعل هذا الامر : انزل الملوك كلا من مكانه ، واجعل في أمكنتهم قواداً ، وأحص لك جيشاً كالجيش الذي سقط لك ، وخيلا كالخيل ، ومراكب كالمراكب ، فنقاتلهم في السهل ، ونقوى عليهم فسمع منهم وفعل كذلك . فلما كان مدار السنة ، أحصى بنهدد الارامیين ، وصعد الى أفيق لمحاربة اسرائيل وأحصي بنو اسرائيل ، وتزودوا ، وساروا لقائهم ، ونزل بنو اسرائيل مقابلهم كأنهم قطيعان صغيران من المعز ، والارامیون قد ملأوا الارض . فتقدم رجل الله وكلم ملك اسرائيل . وقال : هكذا قال الرب لاجل ان الارامیين قالوا : ان الرب هو الله الجبال ، لا الله الاودية ، فاني واضع الى يدك كل هذا الجمهور العظيم ، لتعلموا اني أنا الرب . فنزل هؤلاء تجاه هؤلاء سبعة أيام . ولما كان اليوم السابع ، التحمت الحرب

فقتل بنو اسرائيل من الارميين مئة الف راجل في يوم واحد . وهرب الباقون الى أفيق الى المدينة ، فسقط السور على السبعة والعشرين الف رجل الذين بقوا ، وهرب بنهدد ، ودخل المدينة الى مخدع في مخدع . فقال له عبيده : انا سمعنا ان ملوك آل اسرائيل هم ملوك رحمة . فلنشد الاوساط بمسوح وفي مشرقنا وحبال ونخرج الى ملك اسرائيل لعله يستبقي نفسك . فتشدوا بمسوح في متونهم وحبال في مشرقهم ، وجاؤوا الى ملك اسرائيل وقالوا : ان عبدك بنهدد يقول : أتوسل ان تستبقي نفسي . فقال : أحي هو بعد ، انما هو أخي . فتيمنوا بالقول وبادروا ، فقالوا : أخوك بنهدد . فقال : ائتوا خذوه . فخرج اليه بنهدد ، فأصعده على المركبة . فقال له : المدن التي أخذها أبي من أبيك أردها اليك ، واجعل لك أسواقاً في دمشق ، كما جعل أبي في السامرة . فقال : وأنا أطلقك بهذا العهد ، وقطع له عهداً وأطلقه » أي انطلق من يده.

فهذا نص صريح ، ذكر فيه لأول مرة في التاريخ استعمال (الحبال) أو العقل مشدودة على الرؤوس . وكان ذلك في عهد بنهدد ، الذي ملك على الارميين من سنة ٩١٧ الى سنة ٨٨٥ قبل المسيح

ولا جرم ان المراد (بالحبال) هنا ، ما سمّاها العرب بعد ذلك (بالعُقُل) (جمع عِقال) أو باسماء أخر ، كما سنقف عليها

زد على ذلك ان الفرنسيين اذا ارادوا اليوم الدلالة على (العِقال) بلسانهم قالوا Tresse أي بريم أو جديل أو ضفر أو ضفيرة أو torsade أي حَبْل ، او مرير او فتيل

ومعلوم أيضاً ، ان الارمنيين أو الآراميين كانوا في أيام بَنْهَدَد ، قوماً رُحّلاً كأهل بادية العرب ، فكانت عاداتهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم ، كعادات الاعراب ، وأخلاقهم ، وآدابهم وكذا قُل على أكلهم ، وشربهم ، ولبسهم ، وحلهم ، وترحالهم ، واقامتهم ، فهذا كله كان متشابهاً بين القومين ، لأن الطبيعة كانت تدفعهم الى اتخاذ تلك الامور جميعها ، بصورة واحدة

شهادة التصاوير القديمة

وقد ظهر في الآثار التي وجدت في ديارنا العراقية تصاوير وتماثيل منها بالعقال وحده ومنها بالصيماد أو الكوفية وحدها ، ومنها بالكوفية المثبتة على الرأس بالعقال . وعلى من يشكّ في صحة كلامنا ، ان يزور دار هذه التحف او ما يشابهها في دور التحف الغربية كباريس ، ولندن وبرلين وغيرها ، أو أن يراجع بعض الكُتُب المصوَّرة التاريخية الجامعة لمثل هذه النفائس الأثرية التي تبحث عن العراق ، او الشام ، او فلسطين ، ففيها الكفاية عما يودّ أن يشاهده في البلاد نفسها ، اذ يرى بعيني رأسه تماثيل من عهد حَمُّورَبّ ، اي منذ زهاء خمسة آلاف سنة وعلى رؤوسها العُقُل والكوفيات أو العمائم والعُمُد ، او احد الاثنين دون الآخر

وكنتُ كتبتُ الى حضرة الاستاذ الجليل والأمير العلاّمة الخطير والبحّاثة الشهير شكيب أرسلان ، اسألهُ عما يعرف من أمر الكوفية والعقال وعن وقوفه في تصانيف المؤرخين

والأدباء عليها وكتب الي من صور (لبنان) في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٩٣٧ ما هذا نصه

« ... وقد كنت كتبت الي سنة ١٩٣٥ اذ كان عندي معلومات عن لبس العقال ، وهي هذا ، وأبين بعد ، وكتبت اليك عن هذه المسألة جلية ، وأبان اهل الذكر ، وما حققت عنها بطائل . غير انه اخيراً أرسل لي (قنصل) ، فوجدوا فيها نقوشاً وتماثيل من جملتها رجال على رؤوسهم الكوفيات و عقل ، فهذه التماثيل هي من قبل الاسلام بدون شك ، ومنها بعد ان العقال في جزيرة العرب وما جاورها قديم وعمره يرجع الى آلاف من السنين ... » الخ

ومن تؤيد هذه الأقوال بما يُرى من الصور في التاريخ القديم للشرق الى الحروب الماربة للعلاّمة فرنسوي لنورمان . ففي المجلد ١ : ٣٠٧ صورة رجلين تورانيّين من أهل ماذيّة وقد لفّ الواحد رأسه بعمامة ، وتمّم اعليه بعصابة عريضة . أما الثاني فقد لبس كوفية ، وأثبتها بعصابة أيضاً لا بعقال (١) وقال المؤلف عليها ، إنهما رأسا أسيرين من حروب ماذية وهما مصوران محفورين على قصر سنحاريب في قُوبُنجُوق ، وكان من الاسرى الذين يشتغلون اشغالاً شاقة في بنايات الملك . ومن المعلوم أن الحروب الماذية وقعت في المائة الخامسة قبل الميلاد

وفي ص ١٥٣ من المجلد الرابع ، صورة رجال من الاشوريين يقدمون الى ملك أشور جزية خيلاً ، ورؤوس اولئك الرجال مشدودة بعصائب وهي من النقوش المحفورة التي كانت في بلاط الملك سرجون

وفي ص ٣٠٥ من ذلك المجلد عينه صورة مقسومة قسمين في القسم الأعلى منها رؤوس رجال معصبة بقلانس مستطيلة أو مخاريط مرتفعة لأنهم من الجند . ورؤوس رجال القسم الأسفل منها معطاة بكوفيات وقد أثبتت بعصائب لانهم من الرعية أو من السوقة وقد كتب تحتها : « أشوريون يحملون الاسلاب وهم يسوقون أمامهم الاسرى والصورة من كوينجوق (بأطراف الموصل) وهي اليوم في دار التحف في لندن

وفي ص ٣٢٣ من التاريخ مذكور صورة تمثل حرباً في بلاد جبلية كثيرة الغابات وهي من بلدة نيرود (في انحاء الموصل) والمصوَّرون فيها طائفتان : طائفة الجند وطائفة السوقة فللوس رأس الجندي خوذة وعليهم رأس السوقة العصابة وحدها

وفي ص ٤٢٣ منه صورة مقيّدين ومن الضاربين على آلات اللهو وهم من العبيد الأسرى . ورؤوس جميعهم معصوبة عصباً

وفي ص ٧٨ من المجلد ٦ صورتان تمثل احداهما صورة جندي بيده حمل وعلى جنبه الايمن

(١) François Lenormant — His. Anc. de L'Orient. — [illegible] — Paris.—A. Lévy. 1881

سكين كبير . وثمانية صورة امرأة معتمة بالكوفية . وقد وجدت هاتان الصورتان في إحدى مقابر بلاد فارس . منهما صورتا مدنيين من أهل فارس

وفي ص ١٥٠ من المجلد المذكور ترى صورة رجلين يضمان أحمالا على بعير وعلى رأس أحدهما كوفية مربوطة بعصابة وعلى رأس الثاني قلنسوة بطرفين يتحدران على الأذنين

وفي ص ١٥٥ منه صورة تمثل مهاجرين من أهل آسيا ، يهبطون وادي النيل وقد اصيبت هذه الصورة منقوشة على قبر مصري في بني حسن . وفي ص ٤٣٢ منه صورة اصب حميري يمثل عربا وقد لفوا رؤوسهم بالكوفيات ، وأمرّوها تحت اذقانهم وهذا ما يسمى عند السلف بالتحنك

وان كان بين يديك (التاريخ القديم لشعوب الشرق المؤلف تأليف ج . ماسبرو [1]) فافتح مجلد السلطات ٣ : ٨٧ تجد صورة قسم من جزية اسرائيل للملك سلمان آسر (أو كما يسميه العرب سلمان الأعسر) يحملها رجال قد لفوا رؤوسهم بالكوفيات وقد عقدوا أطرافها وراء رؤوسهم تلك ، ولم يشدوا عليها عقالا . وفي المجلد ٢ : ١٥٩ تجد صورة رجال سوريين وقد لفوا على رؤوسهم عقالا عن صورة نقلت عن قبر كان صاحبه يطوي بساط أيامه في نحو أواخر الدولة الثامنة عشرة من دول مصر المنقرضة (أي في نحو الفي سنة قبل الميلاد)

فهذه بعض الصور التي ظفرنا بها في بعض الكتب التي ترى في خزانتنا ، وهناك مصنفات لا تحصى مزينة بأحسن الصور وفيها ما يثبت كل ما نقلناه أو أثبتناه وكلهُ سابق للاسلام

٣ — الكوفية بعد الاسلام

أما بعد الاسلام فلا جرم أن (الكوفية) كانت موجودة بغير هذا الاسم ، وكذلك (العقال) فان هذا الاسم حدث وقد أخذ من المشابهة التي ترى بينهُ وبين عقال البعير

(أ) الكوفية في عهد العباسيين

وأقدم نص عثرنا عليه يذكر (الكوفية) هو ما جاء في كتاب « رسوم دار الخلافة [2] » لأبي الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابيء (المتوفى سنة ٤٤٨ الهجرة في ص ١٣١ من النسخة الخطية الأصلية) وهذا هو نصها : —

(١) G. Maspero — His. Anc. des Peuples de L'Orient Classique. — Les Empires. — Paris. — Librairie Hachette et Cie 1899.

(٢) وهذا الكتاب بيده الطبع ولدى العزيز بالروح والاستاذ الفاضل السيد ميخائيل عواد ، وقد أغناه بتعليقات من أنفس ما جاء مثلها في هذا الموضوع وربما فوارس والبات تحاور المنبر ويكون بيد أيدي القراء عن قريب

... عليها ... رحمه الله ... على ... والعادة ... وقد ... بين ...
بني ... ٦٦٥ م)

إذن قد مضى على هذه النسخة نحو من الف سنة ومن البديهي أن الكلمة لم توضع في تلك السنة ، بل لا بد من أنه مضى عليها ما يقارب خمسين سنة حتى تشيع بين الناس وربما أكثر من ذلك . وجاء ذكر الكوفية أيضاً في عيون الانباء (٢ : ١٧٧) قال : « وهو شاب [والكلام عن الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني وكان عائشاً في سنة ٥٨٥ للهجرة = ١١٨٩ م] على رأسه كوفية وتخفيفة صغيرة » اه

فهذان نصّان اسلاميان قديمان يذكران الكوفية ذكراً واضحاً لا شبهة فيه . ومعلوم ان الكوفية تحتاج الى عقال أو نحوه لتثبت على الرأس ولذلك كان لا بد من العقال كلما ذكرت الكوفية وان لم يذكر بواضح العبارة

(اسم الكوفية قبل الاسلام : الصماد ، واسم العقال : العصابة) — وطائفة من المرادفات —

قال في العين : — « صمّد رأسه تصميداً : اذا لفّ رأسه بخرقة ، او ثوب ، او منديل ، ما خلا العمامة وهي الصماد » ويقال في كل من الفعل والاسم بالضاد ايضاً أي ضمّد تضميداً والضماد والصماد في اللغة الارمية (صمادا) والمعنى واحد . وتلفظ باسكان الصاد ، وبالمد في الآخر على ما هو شائع في اللغة المذكورة . واما ان العقال كان معروفاً عند قدماء العرب بالعصابة فما لا شك فيه ، لأسباب منها : ان صاحب التاج يقول في مادة (ع ص ب) :

« والعصابة ، بالكسر أيضاً : ما عصب به كالعصاب ، بالكسر أيضاً ، والعصب قاله ابن منظور وعصبه تعصيباً : شدّه . واسم ما شدّ به العصابة ، وفي الأساس : ويقال شدّ رأسه بعصابة ، وغيره : بعصاب . » انتهى

ولما كان بعضهم يشدّ رأسه ، أو يغطيه بالتاج أو العمامة ، توسعوا في معناه الاول الموضوع له ، وانتقلوا به الى معنى التاج والعمامة . ومثل هذا التوسع يعسر معرفة المعنى الاول ويجعل الكلم تقع على طائفة من المعاني ، فيحار القارىء في معرفة المعنى الحقيقي في العبارة الوارد فيها ، حتى انه ليتعذر على السامع معرفة الشيء المدلول عليه بذلك الحرف ، أهو المدلول الأول ، او المتوسع فيه ، او المدلول الثالث او الرابع اذ المعاني قد تتفرع فروعاً جمة فالغربيون مثلاً يميزون بين العصابة وبين التاج وبين العمامة فلكلٍّ من هذه الالفاظ معنى غير معنى أخيه . لكن هكذا جرى الناطقون بالضاد انهم يتوسعون في معاني جميع حروفهم ، او يكاد . فقد قال الشارح : « والعصابة ايضاً : التاج والعمامة . والعمائم يقال لها العصائب . قال الفرزدق :

وركبٍ كأنّ الريح تطلب عندهم لها سلباً من جذبها بالعصائب

اي تنفض في عمائهم من شدتها ، فكأنها تسلبهم إياها . ونقل شيخنا عن عجابة الشهاب في البقرة : ان العصابة ما يستر به الرأس ، ويدار عليه قليلا ، فان زاد فعمامة . ففرق بين العصابة والعمامة . وظاهر [كلام] المصنف : انها اطلق على ما ذكره وعلى العمامة أيضا ، كأنه مشترك وهو الذي صرح به في النهاية . انتهى كلام صاحب التاج

قلنا : والأحسن الرجوع الى المعنى الأول ، وهو أيضاً معنى اللفظة الواردة في بيت الفرزدق

ومن اسماء الكوفية أيضاً (اللمامة) فقد جاء في تاج العروس في مادة (ل ث م) : « قال أبو زيد : يميم تقول : تلثمت ، وغيرهم : تلفعت . وقيل : اللثام : ردّ المرأة قناعها على أنفها ، ورد الرجل عمامته على انفه ، فلو لم ترد اللمامة بمعنى الكوفية لما ساغ له هذا الكلام

ومن الادلة المرجحة على ان العصابة هي العقال اشتقاق الكلمة نفسها فانها تدل دلالة الكلمة الارمية نفسها وتلفظ عصّوثا وبعضهم عصّبثا بمعنى العصابة او العقال ، والمادة اللغوية واحدة والاشتقاق واحد

وزد على هذين الدليلين قدم صورة العقال على التماثيل التي ذكرناها ، فان العقال مصور فيها تصويراً جليًا لا شبهة فيه ولا شك ملفوفاً لفًا محكماً بعد ان أتقن برمته

وهناك دليل رابع وهو ان عرب شرقي الأردن يسمون العقال الى يومنا هذا (العصابة) وهو أبين دليل على اثبات ما نحن في صدده فقد كتب اليّ الاستاذ روكس العزيزي في أول كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٤٠ ما هذا نصه بحروفه : « ويطلقون (اي العرب) على رؤوسهم المربر [وزان كير] وهو لباس قديم عرفه سكان البادية ، ويسميه اهل السلط وعجلون وفلسطين (العقال) . ويسمي البدو العقال (عصابة) أيضاً » انتهى

ودليلنا الخامس : ان وجود العصابة (مع اختلاف اسمائها) في جميع البلاد التي فيها بادية على رؤوس من يشدها عليها دليل بين على ان هذا الأمر لم يحدث في هذه الأيام الأخيرة ، بل هو قديم أجدته هواء البلاد وتقلبه تقلبات اجبرتهم على ان يكون تلك العصرة مما يدفع عن اصحابها شدة الحر في الصيف ، وضرر البرد في الشتاء ويمنع الغبار من التسلل في منافذ الرأس كالعين والأذن والأنف والفم ويدفع المطر عن الوجه

فاذا اجتمعت أدلة اللغة ، والتاريخ والنقل عن السلف ، والمادة الجارية في جميع الديار التي فيها بدو ، فكيف لا تكون الحقيقة على ما نسير في وجهها في هذا العصر ؟

ويزاد على كل ما تقدم ان من اسماء العقال او العصابة مرادفاته في بعض الربوع الناطقة بالضاد . من ذلك (المربر) في لسان أهل شرقي الأردن والمربر في اللغة الفصحى ما تطف من الجبال وطال وامتد تنه وهي المرائر . قاله ابن السكيت . ومنه المربرة بهاء في الآخر . ويسمي

العاميون — وبيرمة على خليج فرس — الكوفية (المصرّ) والعقال (الخيزران) ويخدونه دقيقاً كالزبر . وذكر لنا أحد الحضرمة في سنة ١٨٩٧ واسمه محمد بن الرفاع الخندي ان أهل الربع الخالي — وهم بادية لم يختلطوا بالأجانب — يسمون العقال سبّاً ، بكسر السين وتشديد الباء ، ويسمون به الكوفية ايضاً . وفي تاج العروس : « السبّ بالكسر الخيط والخمار اليمانية . . . » انتهى . فلقد رأينا من استعماله في التوراة (الحبل) ، وعند أهل الحجاز والعراق وكثير من بلاد العرب (العقال) وعند أبناء شرقي الأردن (المرير) ، وعند بدو شرقي الأردن والسلط وعجلون وفلسطين (العصابة) ، و (السبّ) عند أهل الربع الخالي ، فلم تبق شبهة في ان هذه العصابة وجدت منذ أقدم الأزمنة في ديار الشرق الأدنى عند العرب الحقيقيين

(ب) الكوفية في صدر الاسلام

جاء في اللسان في مادة (ب ح ر) : « وأما حديث عبد الله بن أبيّ ، فرواه الأزهري بسنده عن عروة : ان اسامة بن زيد اخبره : ان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ركب حماراً على إكاف ، وتحته قطيفة ، فركبه وأردف اسامة ، وهو يعود سعد بن عبادة . وذلك قبل وقعة بدر فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ، خمّر عبدالله بن أبيّ أنفهُ ، ثم قال : لا تغبروا علينا . ثم وقف النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف ودعاهم الى الله وقرأ القرآن ، فقال له عبد الله : ايها المرء ان كان ما تقول حقّاً ، فلا تؤذنا في مجلسنا ، وارجع الى رحلك ، فمن جاءك منا فاقصص عليه ثم ركب دابتهُ حتى دخل على سعد بن عبادة . فقال لهُ : أي سعد ، ألم تسمع ما قال أبو حُباب ؟ — قال : كذا — فقال سعد : اعفُ واصفح ، فوالله ، لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد أصلح أهل هذه البُحَيْرة [أي يثرب] على أن يتوّجوهُ ، يعني يملكوه فيعصبوه بعصابة فلما ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاك ، شرق لذلك فذلك فعل به ما رأيت فصانعهُ النبيّ صلى الله عليه وسلم » اه

فقول الراوي « خمّر عبد الله بن أبيّ انفهُ » دليل على أنهُ كان على رأسه العصابة ، حتى استطاع أن يخمر أنفه بطرفها ، على مألوف ما يفعل كل من يلبس الكوفية فانهُ يخمر أنفهُ اذا قابلهُ غبار أو عجاج . وفي قولهِ : « يملكوه فيعصبوه بالعصابة » دليل على أن العصابة أو العقال كان من ملابس كبار العرب ، ثم امتدّ استعمالهُ الى جميع أهل البادية حاجتهم اليه

ويزاد على ذلك : أن الرومان اتصلوا بالعرب من جهتين : من جهة الحجاز ، فكان لهم هناك كورة عرفت بمربة الحجرة Arabia Petraea ومن جهة العراق في أيام نوقلس وبنايوس أي قبل الميلاد بنحو سبعين سنة . فكان اتصالهم هذا بابناء اسماعيل دافعاً الى أن يأخذوا منهم بعض أمور خاصة بهم فكان من جملتها الكوفية وسموها في لغتهم Cofea أو Cufia وسماها الايطاليون Coffia أو Scuffia وقد وردت اللفظة اللاتينية في كلام الأسقف فرتانس

Fermanus I المتوفى سنة ٦٠٠ للمسيح أي قبل الهجرة باثنتين وعشرين سنة

ووردت بعد ذلك مبثوثة ومعنية في كلام الكسوين Cowen الانكليزي ، اللاهوتي الشهير ، والشاعر الكبير ، والعلامة المتقطع النظير ، المتوفى سنة ٨٠٤ الميلاد . وكان أحسن من يتقن صنعها في عهد العباسيين أهل الكوفة ، فاجتمع في اللفظة أمران : معنى التكوُّف وهو استدارتها على الرأس ، وصُنعها في الكوفة ، فشاعت حينئذٍ هذه الكلمة ، وقلت كل لفظة سواها.

ومن الغريب أننا قرأنا في كتاب الملابس لدوزي هذه العبارة التي ننقلها الى لغتنا

« ولا أظن ان أحداً يذهب الى ان للكوفية أصلاً عربياً . أما أنا فأذهب الى ان الكوفية ليست الا Cuffia (كفية) الايطالية ، و Coiffia (كوفية) الاسبانية ، و Coiffe [كوافـ] الفرنسية ، و Coif [كوافة] البرتغالية . وأذهب أيضاً الى ان الفرنجيين استعاروا هذه الكلمة من الايطاليين ، وكانوا في العصور الوسطى يتاجرون في موانىء مصر وسورية ويخالطون الصليبيين » انتهى

قلنا : ويردّ هذا الرأي اولاً : تصاوير الأقدمين على الحجارة المنقوشة في ديار الشرق الى يومنا هذا وذلك قبل وجود لغة الايطاليين على الأرض . وثانياً ان الكلمة الايطالية مأخوذة من اللاتينية المولَّدة Cufea أو Cuphia وهذه لا تتصل بمادة أصيلة فيها ، انما هي لقيطة فيها ، فهي من اللغة العربية ، وقد اقتبسها الرومان مناجرين كانوا متصلين بالعرب من جهة الحجاز ومن أنحاء الفرات ، وكانت هذه السمرة شائعة يومئذٍ في جميع الديار العربية . ولهذه المادة في لغتنا معنى يؤيد اشتقاقها ، وهو معنى التكوُّف أي الاستدارة لاشتمالها على الرأس والرأس مستدير ولاحاطتها به كل الاحاطة ومن كل جانب . قال السيد مرتضى : « والكوفية : ما يلبس في الرأس ، سميت لاستدارتها »

عقال العربيات يسمّى النوقلية

جاء في تاج العروس : « النوقلية : شيء من صوف يكون في غلظ اقلّ من الساعد ، ثم يحشى ويعطف ثم تختمر عليه نساء العرب . نقله الازهري » اه

فيؤخذ من هذا الشرح ان النوقلية شيء يشبه عقال الرجال إلاّ انهُ متين ومحشوٌّ صوفاً لكي لا يثقل على الرأس . وقد كنت كتبت في سنة ١٩٣٨ رسالة من القاهرة الى الاستاذ الجليل عبدالله مخلص في القدس ليسأل الشيخ كاظم الدجيلي قنصل العراق هناك وهو من الواقفين تمّ الوقوف على آداب وأخلاق الاعراب وأهل البادية عما يعرف عن العقال الذي تتخذه بدويات العراق ، فأجابني الأستاذ المخلص بما يأتي :

« . . . وقد زرته وحدثته بما أردت وسألته عن العقال الذي تلبسه نساء البدو في العراق ، فذكر لي ما أدونه لكم باختصار

« نساء شمر ، وعنزة ، والظفير ، وربما بعض نساء زوبع يشددن على رؤوسهن العقال ، وطوله نحو

ثلاثة عشار ، تحيط بأعلى الرأس ثلاث أو أربع لفات ، وفي طرفيه عكاولان يتدليان من الخلف ، وفي وسط الرأس غرة ، أو ما يصنعونه منه

« وهو كما ترى من نوع العقال الذي يستعمله الرجال ، إلا أن لبدات أو خيوط العقال الذي تستعمله نساء العرب أكثر . وعلى ذكر العقال ، أقول لكم إن العرب في فلسطين سلبهم وعمرانيهم قد لبسوا العقال ، وبدؤوا التخريش ، وإني الآن أضع على رأسي كوفية بيضاء ، وعقالاً أسود من القرعزلي كالعراقي من البادية » اه

وحضر الشيخ كاظم الدجيلي في بغداد وكنت أيضاً أنا فيها في نحو أواخر أيلول (سبتمبر) من سنة ١٩٣٨ فقال لي بحضور جميع الأدباء الذين كانوا مجتمعين في مجلسنا يومئذٍ ، ما هذا روايته :

« العربيات اليوم يتعدلن ضرباً من العقال ، أي الموظفيه ، هن عربيات الصالح ، وعنزة ، وشمر ، والضفير ، وقد قل الآن استعمالهن له ، وبقي محصوراً في نساء الشيوخ والوجهاء من سائر الأعرابيات » اه

وكنت سألتُ مثل هذا السؤال الأستاذ الدكتور مصطفى جواد وهو في باريس ، فكان جوابه ما أرويه بحروفه :

« إن التي رأيتموها على رؤوس البدويات يوشك أن يكون نوع من جنس العقال الذي يتخذه الرجال ، ونوع يسمى جمجة أي كمكة ، يتخذه النساء الربيبات ، أي المتبديات ، تمويهاً لئلا يحملن على رؤوسهن من نصاع الثلج والرائب . وكلاهما مألوف معروف

« فأما العقال فعند أكثر البدويات الرواحل . وأما الكمكة فهي شيء اضطرت الحاجة إليه ، فلا يدخل في أثواب العقال . فالعقال هو الرفيع . والجمجة كثيفة) اه

وسألتُ الأستاذ عبد الله مخلص أن يبدي لي رأيه بخصوص عقال النساء فكتب إليَّ من القدس بتاريخ ٣١/٨/١٩٣٨ ما هذا نصه :

(أما لباس الرأس الذي يشبه العقال ، وهو كما وصفتم من جهة شكله ، ومصنوع عادة من القماش ، يسمى هنا في فلسطين (صيادة) وهو خاص بالنساء . إلا أن هذا اللباس لا يدار على الرأس كالعقال ، بل يوضع فوقه ، فيتدلى من جانبين ، حتى يصل إلى الأذنين . وله خيط يربط به من تحت الحنك يسمى (عنكة) أو (زنار) ويحاط على دائر الصيادة مكوكات فضية ، قديمة ، ثقيلة ، حتى مركب بعضها بعضاً ، فتتراص وتسجم . و (الصيادة) هذا غير (العباد) الوارد في كتب اللغة . وكذلك القول على (العنكة) و (الزنار) اه كلامه

فيؤخذ من هذا كله أن العقال ، أو ضرباً منهُ ، معروف إلى اليوم عند البدويات ، على حدّ ما كان معروفاً في سابق العهد ، إلاّ أنه آخذ بالزوال شيئاً بعد شيء ، وفي جميع بلاد الشرق الأدنى التي فيها بادية . وقد ذكر بُرْكارْدْت أنّ نساء أعراب الرولة يتممن عمائم من حرير أسود ، طول الواحدة ذراعان مربعان ويسونها (شال خاص) وتصل في دمشق ، وكثيراً ما تزين بخيوط من ذهب أو فضة » اه

اختلاف أسماء الكوفية باختلاف البلاد والأزمان

مرَّ بنا أن الكوفية لم تكن دائماً معروفة بهذا الاسم ، فقد رأينا أنها سميت في سابق العهد بالعباد والعباد ، ثم انتقل إلى لفظ الكوفية في عهد العباسيين ، ثم اختلفت أسماؤها باختلاف

المادة المتخذة منها ، او باختلاف ألوانها . وقد يختلف أهل البلد الواحد في التلفظ بالكلمة الواحدة نفسها لأن الجميع لا يتفقون على النطق بالحروف على وجه واحد وجمع الكوفية الكوافيّ والكوفيّة يلفظها العراقيون الكُفَيَّة أو الجفيّة ، لأنهم يلفظون الكاف جافاً معقودة مثل ما في الانكليزية Chain وبكسروها ، ويليها فاء مشددة مكسورة ، ويعقبها ياء مشدّدة مفتوحة ، وفي الآخر هاء . ويجمعونها على جَفَافِيّ وزان كراسيّ . وهم يريدون بها أيضاً معنى آخر ، ولاسيما أهل المدن منهم ، فانهم يطلقونها على المنديل الذي يمخطون فيه ، اي الشَّتَّة ، وعلى المِنْشَوش وهو ما يتمسح به من المناديل . وأهل نجد يسمون اليوم الكوفية الحمراء (مُحْمَرَّة) وحركة الميم والراء بين الفتح والكسر . واذا كانت بيضاء فيسمونها (غُتْرَة) بضم الغين ، او محركة بين الكسر والفتح ، وتكون من القطن . والعراقيون من أهل البادية يسمون الكوفية (الحلالية) بتحريك الحاء واللام وكسر اللام الثانية وتشديد الياء . وهذا اذا كانت من قطن . اما اذا كانت من قز فيسمونها (قزية) ويلفظونها (جزّية) بفتح الاول وتشديد الثاني المكسور يليها ياء مشددة مفتوحة . والقزّ ضرب من الابريسم او الحرير إلاّ انهُ دون الحرير حسناً

ومن اسماء الكوفية عند أهل نجد (الدَّسْتَال) او (الدَّسْتَالة) بدال مفتوحة وبعضهم يكسرها . وهم يخصون بذلك الكوفية الحمراء الخالية من كل نقش بارز وهي غير الشماغ أو الشماغ وغير الشال وغير المُشَرَّة وربما كان الدستال مخططاً أحمر وأصفر ، ويجمعونها على دَسَاميل

والكلمة فارسية الأصل منحوتة من (دست) أي يد . و (مال) اي يُمسح او يمسّ والمعنى ما يمسح به اليد لان العرب لا يتخذون شتفة يمخطون بها ، بل يمتون أيديهم ويمسحون وجوههم بطرف الكوفية ايّاً كانت

(والشماغ) ككتاب أو (الشماغ) بعضهم يجعل الف في مكان الغين في اللفظين المذكورين ويجمعونها على شماميغ كلمة تركية هي في هذه اللغة بمعنى أو بشماق . برقع خفيف تتبرقع به التركيات ، ثم اطلق على كل ستر أو لثام أو نقاب أيّاً كان . لكن أهل نجد وبعض العراقيين يسمون به كوفية تتخذ من القطن وفيها لمعات خيوط حُمر أو زرق ، ويكون الشماغ مربعاً ، فيطوى طيّاً مخالفاً بين أطرافه ، فيصبح كالزاوية الكبيرة المستقيمة الزوايا أو الكؤس فتوضع على الرأس بتحكم وسطها عليه ثم يربط عليها العقال

اما اذا كانت الكوفية حمراء اللون متخذة من الصوف لا من القطن فيسمونها (الشَّال) من باب التوسع في معاني الالفاظ . ومعلوم أن الشال في الأصل : « هذا الرداء الذي يعمل بكشمير ولاهور ويجلب به (كذا) الى البلاد يقال انهُ من وبر الجمل . سمي به لانهُ يرفع على الاكتاف. ان كانت عربية والجمع شملان وشالات » اهـ عن التاج

قلنا : ليس العقال من كلام العرب ، بل من لسان الفرس وهو عندهم من الثياب يتخذ من الصوف ، خشن الصنع ، يلبسهُ فقراؤه ويه سمي الثوب الذي يصنع في كشمير ، ولاعور ، وفي تلك الارجاء ويكون من شعر المعزى أو من وبر الجمال أو من صوف الغنم

اما اذا كانت الكوفية من القطن الابيض فيسميها أهل نجد (غترة) وزان غرفة ، وكان يسميها أهل العراق قبل نحو مائة سنة (الضربية) والاسم مأخوذ من (الضرب) [1] وهو الناج لبياضها الخالص ، وتكون من حرير أبيض وربما سموها (ضربياً) بلا هاء . واذا كانت تلك الكوفية من الحرير المشطب أو المبيح أو المقلم فكانوا يسمونها (الساعورية) ، ولعلَّ سبب هذه التسمية ان اغلب هذه الشطب او الخطوط المتدة فيها ، صفر بلون الثار وهي الساعور

هذا بعض ما وجدناه من اسماء الكوفية بحسب بعض البلدان ، ولا جرم ان هناك غير هذه الالفاظ

اختلاف اسماء العقال باختلاف البلدان العربية

قد بينا في ما تقدم من كلامنا ان اول أسماء العقال : (الحبل) على ما ورد في سفر الملوك من أسفار التوراة ، لأنهُ هو حقيقة حبلٌ لا غير والذين نقلوا التوراة الى لغات مختلفة لم يسموه الا باسم يدل على الحبل ، فهو باليونانية Kamilos وفي اللاتينية Funiculus وفي الأرمية (حَبْلا) وفي الحبشية (حبل) الى غيرها من اللغات

ولهذا كان من أسمائه العربية في البلاد البادية اللسان تدل كلها على مثل هذا المعنى . فمن أسمائه الأولى عند العرب (العصابة) . قال في التاج (العصابة) بالكسر : ما عصب به (كالعصاب) بالكسر أيضاً والعصب . قالهُ ابن منظور . وعصَّبهُ تعصيباً : شدَّهُ واسم ما شدَّ به العصابة ، آه . وهو الاسم الشائع اليوم في شرقي الأردن وأنحاء فلسطين

ومن أسمائه في تلك الربوع (المرير) . فراجعها في ما تقدم من كلامنا

والمرير هذا يسمى في عُمان [من دون خليج فارس] خزاماً . وقد تقدم الكلام عليه ايضاً

هذا ما استصحنا ان نجمعه من الافادات لاثبات ان الكوفية والعقال من أقدم ملابس الرأس عند العرب ويصعب على منكرها ان يهدم هذه الادلة ، اللهمَّ الا اذا كان سيء النية . لا يقتنع وجود الشمس في رائعة النهار

بغداد

---

(١) وصف الضرب الذي رأيناه عند الصديق الشرقي النجاة السيد يعقوب افندي مركيس في خرقة طولها نحو متر و ٣٠ سنتيمتراً ، في عرض متر و ٣٠ سنتيمتراً ، ورفعتها صفراء ، وفي طرفيها ووسطها خط (أي خط عرضي أحمر بعرض ١٥ سنتيمتراً ، يتوسطه خط أصفر بعرض نصف سنتيمتر) ثم يتلو كل خط أحمر من هذه الاعلام الثلاثة خطان أصفران يفصل كل واحد من أخيه خط أصفر عرضه نحو نصف سنتيمتر . وينتهي العرض من الطرفين بخيوط معروفة عدد ٣٦ من كل جهة وكان هذا الضرب مصنوعاً في بغداد قبل زهاء خمسين سنة ، متين النسج حسن الالوان يدل على مهارة الحائك والصانع معاً